

الحوار.. تنمية القناعات والمساحات المشتركة



«يُعَلِّمُنَا الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ، أَنَّ الْحَوَارِ يَسْتَهْدِفُ الْإِنْتِقَالَ مِنَ الْقَوَاسِمِ الْمَشْتَرَكَةِ، وَيَسْعَى عِبْرَ آيَاتِهِ وَأُطْرِهِ إِلَى تَنْمِيَةِ الْمَسَاحَاتِ الْمَشْتَرَكَةِ وَالْعَمَلِ عَلَى تَفْعِيلِهَا. قَالَ تَعَالَى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ - وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ - فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (آل عمران/ 64). فَالْحَوَارِ لَا يَسْتَهْدِفُ بِالدرْجَةِ الْأُولَى إِقْنَاعَ الْآخَرِينَ بِقَنَاعَاتِ الذَّاتِ، وَإِنَّمَا تَعْرِيفُهَا إِلَى الطَّرْفِ الْآخَرِ. وَبِالتَّالِي فَإِنَّهُ حَوَارٌ لَا يَسْتَهْدِفُ الْإِقْنَاعَ وَالْقَطِيعَةَ، وَإِنَّمَا التَّوَاصُلَ وَالتَّعَايُشَ. فَ"الْإِسْلَامُ يَدْعُو إِلَى التَّحَرُّرِ مِنْ كُلِّ الْقِيُودِ الَّتِي تَمْنَعُ الْإِنْسَانَ مِنَ الْإِنْتِقَالِ فِي خَطِّ الْحُرِّيَّةِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ أَمَامَ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا أَنَّهُ يَدْعُو أَيْضًا إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ كُلِّ الضَّلَالَاتِ وَالْجَهَالَاتِ الَّتِي تَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ خَلِيفَةً لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى الْأَرْضِ، وَهُوَ يَتِمَكَّنُ مِنْ ذَلِكَ حِينَئِذَا يَقْدِرُ عَلَى إِصْلَاحِ نَفْسِهِ وَمَجْتَمَعِهِ عَلَى ضَوْءِ التَّشْرِيعِ الْإِلَهِيِّ مِنْ خِلَالِ الْإِتِمَامِ بِهِ".

وَيَنْهَى الْقُرْآنُ أَيْضًا عَنِ الْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ الَّذِي لَا يُفْضِي إِلَى نَتِيجَةٍ، بَلْ قَدْ يَزْعِزُ الْمَشْتَرَكَاتِ، وَيُوجِدُ مَنَاحَاً نَفْسِيًّا يَحُلُّ دُونَ تَنْمِيَةِ الْقَوَاسِمِ الْمَشْتَرَكَةِ. قَالَ تَعَالَى: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شُرُوعًا لِمَنْ هُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّهُمْ أُمُودٌ حَسْرَةٍ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِتَعْلِيمِ اللَّهِ مِنْهُمْ) (الأنعام/ 159).

وَقَالَ تَعَالَى: (وَمَنْ تَفَرَّقَ قُلُوبًا لَا مَعْنَى بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِغَيْبٍ بَيْنَهُمْ وَلَوْ لَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنَ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّلَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ) (الشورى/ 14).

إِنَّنَا مُطَالِبُونَ جَمِيعاً، أَنْ نَمَارِسَ فَاعِلِيَّتَنَا الْفِكْرِيَّةَ وَحَيَوِيَّتَنَا الثَّقَافِيَّةَ، لِتَوْطِيدِ أَرْكَانِ وَعَوَامِلِ الْمَنْهَجِ الْحَوَارِيِّ، حَتَّى نَكُونَ جَمِيعاً بِمَسْتَوَى الْمَشَارَكَةِ النَّوْعِيَّةِ بِصَنْعِ حَقَائِقِنَا، وَصِيَاغَةِ رَاهِنِنَا، وَإِنْجَاحِ خِيَارَاتِ غَدِنَا وَمُسْتَقْبَلِنَا.

وَكَمَا يَقُولُ أَحَدُ الْمَفَكِّهِينَ الْإِسْلَامِيِّينَ: إِنَّ الْحَوَارِ بِحَاجَةٍ إِلَى ثِقَافَةٍ وَفِكْرٍ يَحْتَرِمَانِ الْفُرُوقَ وَالتَّنَوُّعَ، وَيَرَى أَنَّ الْحَقَائِقَ الْمَجْتَمَعِيَّةَ مَا هِيَاتِ مَرْكَبَةُ ذَاتِ وَجْهِ وَأَبْعَادٍ لَا جَوَاهِرَ بِسِطَّةٍ مُطْلَقَةٍ ذَاتِ بَعْدٍ وَاحِدٍ.

إنَّه فكر يجيد التبادل والتأليف انطلاقاً من توسُّط مشرف من غير أن ينجح إلى دمج كلاً في الآخر المسافات والتخوم، أو يقع في تفرعية انقسامية تقطع العلائق وتعدم التواصل.

ولقد أظهرت وقائع الحروب والمنازعات أنَّ التصادم داخل الجماعة البشرية الواحدة، كان أشد فتكاً من تصادم الجماعات البشرية المختلفة. وما يجري من قتل وفظاعات وتدمير أعمى في الجزائر وأفغانستان وبعض دول القرن الأفريقي، يؤكد هذه الحقيقة، ويجعلنا نجزم أنَّ ضحايا الحروب الداخلية والاقتتال الأهلي، أكثر فظاعة وتدميراً من كلِّ الحروب الخارجية التي خاضتها البلدان العربية والإسلامية.

وأوضح عبدالمنعم سعيد هذه الحقيقة بالأرقام، وقال: إنَّ الصراع مع إسرائيل كلف في العقود الخمسة الماضية حوالي 200 ألف من الضحايا، ولكن الصراعات الأهلية والحروب الداخلية بين البلدان العربية والإسلامية كلفت 2.5 مليون ضحية، ومن حيث التكلفة المالية، فإنَّ الصراع الأوَّل كلفت الدول العربية حوالي 300 بليون دولار، أما باقي الصراعات فبلغت تكاليفها حوالي 1.2 تريليون دولار.

وهكذا نجد أنَّ 80 في المئة من الحروب والصراعات والنزاعات تقع تحت عنوان الحروب الداخلية التي تتنازع فيها القوى المختلفة حول السلطة والثروة والنفوذ.

ويشير أحد المفكرين إلى هذه الحقيقة بالقول: ولا تزال الحياة تحتضن الحوار، وترزح في الوقت نفسه تحت ثقل الأساليب العنيفة التي تريد أن تخنق الحار بالجو الخانق الذي تصنعه، وبالقوة المادية الغاشمة التي تحشدها، وبالعقليات الضيقة التي تربتها، ويقف الحوار أمام القوة كما وقف الأنبياء ليعلموا القوة أنَّها لا تستطيع أن تبني الحياة التي تصنعها إلا من خلال الحوار. لأنَّ القوة التي تفقد ذلك سوف تدمر نفسها في نهاية المطاف. لأنَّها لا تجد أمامها إلاَّ الحجارة التي ترمي حجارة، من دون هدف أو معنى. إنَّ الحوار يعطي القوة المضمون الذي تتحرك من خلاله، والهدف الذي تسعى إليه والروح التي تعيش فيها.

لهذا فإنَّ الحوار الثقافي والتواصل الإنساني، ينبغي ألا يتوقَّف عند الأحكام الفاطنة والكاسحة، التي هي صدى أنَّ انعكاس لحقبة التصنيفات الأيديولوجية، وبذور الحوار والتلاقح الذي يقيم بالإدانات والتهويل والتخوين، وقد كلفت هذه المرحلة العالم العربي والإسلامي الكثير من الضحايا والجهود والإمكانات.

يقتضي الحوار في الحقل الثقافي والإنساني العمل على مستويين في آن واحد، مستوى الذات والعمل على التخلص من روائب لغة النفي والإقصاء والتخزين وكلِّ المفردات التي تلغي المختلف والمغاير، ولا تسمح بأي شكل من الأشكال بأي مستوى من الحوار معه.

لذلك فإنَّ تنظيف النفس والعقل من كلِّ المفردات والمنطق السائد في تلك الحقبة التاريخية، يُعدُّ من الأعمال الجوهرية التي يجب أن نتوجَّه إليها وتكون لدينا الشجاعة الكافية، لإعلان نهايتها ودخولنا في حقبة تاريخية جديدة تشجع الحوار وتؤسس للتسامح وتؤصل الحرية لرأي الآخر.

ومستوى الواقع الذي يجب أن يسوده الحوار وندرب فيه على احترام التنوُّع وإدارة الاختلاف بعقلية حضارية مُنفتحة وبعيدة كلِّ البُعد عن التعصُّب المقيت الذي لا يفضي إلاَّ إلى المزيد من الحروب والاقتتال الداخلي.

يتحوَّل الحوار الثقافي الذي يخرج من هذا السياق أو النطاق إلى حوار طرشان، لا يفضي إلاَّ إلى المزيد من التعصُّب للرأي وسيادة عقلية الخصم والإفحام، وهي العقلية التي تدفع بشكل جنوني إلى خيارات عنيفة، تدمِّر الجميع، وتحيل الأوطان إلى أرض خربة تعشش فيها الغربان والحيوانات المفترسة. ▶

المصدر: كتاب حوار الأديان وقضايا الحرية والمشاركة

